المحاضرة السابعة (علم أسباب النزول)

علم أسباب النزول ،هو أحد علوم القرآن التي تعنى بمعرفة أسباب نزول آيات القرآن والقضايا والحوادث المتعلقة بها ، وكذلك وقت نزول الآية ومكانها وذلك بغرض معرفة تفسيرها وفهمها فهمًا صحيحًا، ومعرفة الحكمة من الأحكام القرآنية.

والأسباب جمع سبب والسبب كل ما يتوصل به إلى غيره قال صاحب القاموس المحيط: " والسبب الحبل وما يتوصل به إلى غيره ويجمع على أسباب وأسباب السماء مراقيها أو نواحيها أو أبوابها"، قال صاحب لسان العرب: " السبب هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء ثم استعير إلى كل ما يتوصل به إلى شيء كقوله تعالى :﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾(البقرة: ١٦٦) (أي الوصل والمودات)" ، وقد استعير السبب إلى الحادثة التي من أجلها نزلت آية أو آيات من القرآن، لأنه يتوصل به إلى تفسير الآية والوقوف على قصتها وإزالة الإشكال عنها.

فأسباب النزول هي: أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها، فهو علم يتكفل بالكشف عن الأحداث التاريخية والوقائع التي كانت من دواعي نزول النص القرآني يقول الواحدي : (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها ، وبيان النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.) ويقول السبحاني في دور علم اسباب النزول:(.. فإنّه يُلقي ضوءاً على الآية ويوضح إبهامها، فلا غنًى للمفسّر من الرجوع إلى أسباب النزول قبل تفسير الآية..)

وقد برع في هذه العلم جمع من أئمة أهل البيت عليهم السلام والصحابة الكرام، فقد روي عن الإمام علي قوله : " والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين نزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا " وقال في حديث آخر وهو على المنبر :" سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل " وإذا رجعنا الى المصادر التي تكفلت بتدوين أسباب النزول لوجدناها تدرج هذا العلم ضمن التفسير ،لأنه يعين المفسر على فهم النص القرآني .

والقرائن التاريخية تشير الى أن أول من أفرد أسباب النزول في باب مستقل هو الطبري في تفسيره ، لكنه لم يستعمل مصطلح أسباب النزول أو سبب النزول ، كذلك لا نجد هذا المصطلح في العصر الاول من الإسلام ، نعم كانت تَرِد عبارات من قبيل (على من نزلت) و(في من نزلت) لكنك تجد هذا المصطلح في كلام الإمام الصادق (عليه السلام) حيث ورد عنه في سبب نزول سورة الفتح قولَه : كان سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم ان الله (عز وجل) أمر رسوله في النوم أن يدخل المسجد الحرام ...)، ويبدو أن مصطلح أسباب النزول قد استقر نهائياً في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

وذكر علماء المسلمين عدة فوائد لهذا العلم، منها: - أنها تُعين قارئ القرآن على فهمه فهمًا صحيحًا سليمًا، وذلك أن العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبَّب.

- وأنها تُيسِّرُ حفظ القرآن وتُثَبِّتُ معناه، لأن ربط الأحكام بالحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة يساعد على استقرار المعلومة وتركيزها.

- وأنها تمكِّن من معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم الوارد في آية معينة في القرآن.

وعلى هذا الأساس كانت آيات القرآن الكريم تنقسم على قسمين :أحدهما: الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها، كالآيات التي تصور قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب وغيرها، فإن الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال، أو حلا لمشكلة طارئة، أو تعليقا على حادثة معاصرة . والاخر: الآيات التي نزلت بسبب وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلبت حلا أو سؤالا استدعى الجواب عنه، أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها، وتسمى هذه الأسباب التي استدعت نزول القرآن بأسباب النزول ، فقسم من الآيات نزلت مرتبطة بسبب من الأسباب، ومن هذه الأسباب:

- حدوث واقعة معينة فينزل القرآن بشأنها، مثال ذلك ما رواه البخاري في صحيحه » :لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي : **يا بني فهر، يا بني عدي** ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال " :**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟** " قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال " :**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ." فقال أبو لهب :تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا. فنزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)(المسد١،٢).
- أن يُسأل النبي محمد ﷺ عن شيء ، فينزل القرآن ببيان الحكم ، مثال ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : « كنت مع النبي في حرث بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، لا يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه ، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي ، ثم قال : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الأسراء٨٥).

ولما كان سبب النزول أمرًا واقعًا نزلت بشأنه الآية ، كان من البَدَيهي ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد ، لهذا قيل «لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب». وقد اتفق علماء الدين الإسلامي على إثبات أسباب النزول بالنقل الصحيح عن شاهد أو مستمع للحدث من أهل البيت والصحابة والتابعين وصحة سند الرواية.

وأكد علماء المسلمين قاعدة متعلقة بأسباب النزول، مفادها أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، وتعني هذه القاعدة أن النص الشرعي إذا ورد بسبب واقعة معينة حصلت في عصر التنزيل، فإن الحكم لا يكون مقتصرًا على تلك الواقعة فحسب، وإنما يكون حكمًا عامًا في كل ما شابهها من وقائع ونوازل، فإذا نزلت الآية بسبب خاص، وكان اللفظ فيها عاما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه، لان سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص، وقد جرت عادة القرآن أن ينزل بعض احكامه وتعليماته وارشاداته على اثر وقائع واحداث تقع في حياة الناس وتتطلب حكما وتعليما من الله، لكي يجئ البيان القرآني أبلغ تأثيرا وأشد أهمية في نظر المسلمين وان كان مضمونه عاما شامل وذلك أن أحكام القرآن هي أحكام عامة لكل زمان ومكان، وليست أحكامًا خاصة بأفراد معينين.

المحاضرة الثامنة (أشهر كتب علم أسباب النزول)

أشهر الكتب القديمة في هذا العلم:

١- أسباب النزول تأليف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري ، مفسر، عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل. كان من أولاد التجار أصله من ساوة (بين الري وهمذان) توفي بنيسابور سنة (٤٦٨هـ).. وكتابه من أشهر الكتب المصنفة في أسباب النزول، وقد عرف مؤلفه به والكتاب يبحث في علم من علوم القرآن الكريم وهو علم أسباب النزول حيث إن للكثير من الآيات القرآنية وقائع نزلت فيها، وقد أورد فيه المصنف ما يزيد على ٤٧٠ حادثة وواقعة نزلت فيها الآيات القرآنية مرتبا لها على حسب سور القرآن، كل ذلك يورده بالإسناد إلى الصحابة الذين يروون هذه الأسباب، وهو من أهم الكتب في هذا الباب ، حققه عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح – الدمام سنة النشر: ١٤١٢ = ١٩٩٢عدد الأجزاء: ١.

٢- العُجابُ في بيان الأسباب تأليف : الحافظ المحدث أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)

وهو من أجود كتب أسباب النزول ، ولكنه للأسف غير مكتمل ، فلم ينته منه المؤلف ، وقد قدم للكتاب بمقدمة رائعة في طرق التفسير عند أهل التفسير جدير بكل طالب علم أن يقرأها ويدرسها، ثم تتبع الطرق والأسانيد التي وردت بها روايات أسباب النزول ، واستدرك على الواحدي ومن قبله ، وهو تتميم لكتاب الواحدي. و يعد من أفضل الكتب وانفسها رغم اختصاره الشديد وايجازه؛ فقد جمع اسباب النزول وعلق عليها وعلق على المتون والاسانيد بشكل رائع عجيب مفيد لكل من يطلع عليه. وقد بذل المحقق الدكتور عبدالحكيم الأنيس جهداً رائعاً في تحقيقه الذي نشرته دار ابن الجوزي عام ١٤١٨هـ في مجلدين .

٣- لباب النقول في أسباب النزول، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي توفي سنة (٩١١) . وهذا الكتاب سهل مختصر بذل فيه السيوطي جهداً مشكوراً ، وقد استوعب ما ذكره الواحدي في كتابه وزاد عليه شيئا قليلاً . وهو مناسب للجميع لمعرفة أسباب النزول المروية يُعتبر هذا الكتاب من أهم ما أُلِّف في الباب، ويتميَّز على كتاب الواحدي رحمه الله بالاختصار، والزيادات عليه، وعزو كل حديثٍ إلى من خرَّجه من أصحاب الكتب المعتبرة، وتمييز الصحيح من غيره، والمقبول من المردود، والجمع بين الروايات المتعددة، وتنحية ما ليس من أسباب النزول وقد استوفى مؤلفه كل ما ورد من اسباب في نزول السور او الآيات القرآنية وامتاز كتابه بالإفادة من الكتب السابقة عليه واضاف عليها من خلال تخريج الاحاديث النبوية الواردة فيه وجمع السيوطي في أسباب النزول عدد ألف وثلاثمائة وعشرين سببا.

أما أشهر الكتب الحديثة في هذا العلم فهي :

١- أسباب النزول تأليف الباحث التونسي بسام الجمل، صدر في طبعته الثانية سنة ٢٠١٣ من مؤسسة مؤمنون بلا حدود، والمركز الثقافي العربي. ونذكر هنا كون هذا العمل في أصله بحث لنيل شهادة الدكتوراه ، كلية الآداب منوبة، تونس ٢٠٠٣ الكتاب في غاية الأهمية، وتأتي أهمية الكتاب في كون المؤلف خرج عن المعتاد الذي يحضر معه التكرار في القول والاستسلام في الأخذ عن القدماء، دون إعمال النظر والبصيرة فيما قالوا به وساروا عليه؛ إذ نحا منحى علميا في قراءته لعلم أسباب النزول.

ولهذا، نجد المؤلف يخبرنا بأنه توسل في موضوع البحث بالاعتماد على الإحصاء، وإنجاز جداول تمكنه من ذلك. وقد تجاوز عملية الإحصاء إلى الأخذ بالمقارنة بين الأخبار والرجوع إلى مختلف مصادرها ومدوناتها بروح يغلب عليها طابع النقد والتحليل والاستنتاج؛ فليس من المبالغة إن قلنا إن هذا الكتاب - أسباب النزول - يعد المحاولة الأولى من نوعها في الزمن الحالي، في قراءة علم من علوم القرآن، كعلم أسباب النزول، قراءة علمية.

في نظر المؤلف، القول بسبب نزول الآيات القرآنية ظهر بعد اكتمال نزول النص القرآني، نتيجة أسباب ودواعٍ، منها ما هو ثقافي، وما هو إيديولوجي، وما هو معرفي. و تتداخل هذه العوامل كلها فيما بينها.

فالعامل الثقافي، ارتبط بتوسع رقعة الدولة الإسلامية ورغبة الأجيال اللاحقة للجيل الأول في استعادة تجربة النبي الفذة، غير أن هذه الاستعادة، لا تعكس عند الفحص إلا تمثلا معينا لما حصل فعلا في التاريخ، وقد كانت مجالس القصاص والإخباريين والوعاظ إطارا لتلك الاستعادة".

أما العامل المعرفي، فارتبط بانتقال المجتمع الإسلامي من التدين العفوي إلى التدين المبني على المعرفة؛ فكان لا بد من معرفة الأسباب التي أدت إلى نزول الوحي، والمناسبات التي تعلقت بها .

أما العامل الأيديولوجي، فقد ارتبط بالصراع حول السلطة بعد وفاة الرسول، إذ تم التعامل مع النص القرآني قصد الرد على المخالفين.

٢- صحيح أسباب النزول تأليف : إبراهيم محمد العلي ، هذه محاولة جادة لاستخراج الروايات الصحيحة في أسباب النزول من المصادر الأصلية ، مع تمييز الصحيح منها والضعيف ، ومن ثم أخذ الصحيح وتصنيفه إلى شقين :الأول : " للروايات الصحيحة الصريحة في كونها سبباً " .

والثانية : " في تفسير الصحابة مما عُد من قبيل أسباب النزول " ، وقد جاءت الدراسة في فصلين :

الفصل الأول : " أسباب النزول الصحيحة " وخصصه للروايات الصحيحة التي تصلح أن تكون أسباباً لنزول الآيات الواردة فيها وقد بلغت هذه الروايات : ثلاثمائة وأربعاً وعشرين رواية .

الفصل الثاني : جعل عنوانه "تفسير الصحابة الذي عده بعض أهل العلم من أسباب النزول وليس كذلك " وقد بلغت الروايات مائة وستاً وأربعين رواية وقد قام المؤلف بتخريج هذه الروايات تخريجاً مختصراً ، مبيناً فيه صحة هذه الروايات التي ساقها في كتابة ، وقد حاول المؤلف في هذه الدراسة تنقيح وتحرير القول في أسباب النزول ، وإبعاد ما لم يصح من الروايات ، وفصل أسباب النزول عن غيرها من الروايات الصحيحة التفسيرية ، ونقد تلك الروايات ، نقداً علمياً ، ودراستها دراسة تفسيرية تحليلية ثم ينظر في تلك الروايات نظرة أخرى تفسيرية ، يفسر فيها الآية على ضوء تلك الرواية ، ويبين انطباق كلمات الآية على أحداث تلك الرواية ، ويصور لنا واقع حياة الصحابة من خلال الحادثة والآية ، وكيفية معالجة الآية لحياة الصحابة ، ونجاحها في حل مشكلاتهم ، وأثرها فيهم وهذه الدراسة التحليلية الموضوعية التفسيرية ضرورية لأنها هي النتيجة التي لابد أن توصل إليها معرفة أسباب النزول ، والغاية التي لابد من تحقيقها بعد الاطلاع على أسباب النزول .